## المحاضرة الثالثة عشر: الحضارة العربية قبل الإسلام.

### أولا. جغرافية شبه الجزيرة العربية:

تحتل شبه جزيرة العرب موقعا استراتيجيا ممتازا بين قارات العالم القديم المعروفة آنذاك، وتتربع على مساحة تفوق المليون ميل مربع بقليل، تشرف شبه الجزيرة على مسطحات مائية متعددة رغم طابعها الصحراوي الجاف، يمتد ساحلها الشرقي من رأس الخليج العربي شمالا حتى رأس الحد جنوبا 1500 ميلا، ويبلغ امتدادها من بحر العرب جنوبا إلى الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية 1600 ميلا، أما عرضها في أضيق نطاق بين البحر الأحمر والخليج العربي فهو 750 ميلا، وأما بين خليج عمان والبحر الأحمر، فيصل الاتساع إلى 1200 ميلا.

ويحد جزيرة العرب الخليج الفارسي (الخليج العربي) شرقا، والمحيط الهندي جنوبا، البحر الأحمر غربا، أما حدها الشمالي فهي بادية الشام والتي تمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج.

عرفت البلاد باسم "جزيرة العرب"، وهو لقب أطلقه الرحالة العرب من الجغرافيين أساس أن الفرات يحيط بها من الشمال إلى أن تتصل روافده الشمالية الغربية أو تكاد بسواحل الشام، وبذلك يكون حدها الشمالي من الغرب هي سواحل الشام التي تسير جنوبا إلى أن تختلط بمياه النيل، الذي يختلط بدوره بمياه القلزم جنوبا، وهي رقعة جغرافية واسعة قسمها المؤرخون والرحالة اليونان والرومان إلى أقسام ثلاثة:

1- العربية السعيدة: أكثر الأقسام اتساعا، ويشمل كل المناطق التي تقع الجزء الجنوبي الغربي، حيث تقع بلاد اليمن لغنى محاصيلها وتنوعها ولاعتدال مناخها.
2- العربية الصخرية: شمال العربية السعيدة وغربها وهي الأراضي التي يسكن فيها الأنباط، ويطلق ذلك الاسم، أي العربية الحجرية على شبه جزيرة سينا وبلاد الأنباط وعاصمتها البتراء، وقد سميت كذلك إما نسبة إلى عاصمتها، أو إلى طبيعة المنطقة الصخرية.
3- العربية الصحراوية: فيعنون بها بلاد الشام (بادية الشام دون الساحل)، وهي المناطق الواقعة بين مصر وفنيقيا إلى الصحراء.

أما الجغرافيين العرب فقد قسموا شبه الجزيرة إلى خمسة أقسام هي اليمن وتهامة والحجاز ونجد والعروض:

1- **اليمن:** تقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب، تمتد اليمن على طول المحيط الهندي، ويحدها البحر الأحمر من الغرب والحجاز من الشمال وتتخللها الأودية التي تنساب فيها مياه الأمطار، أما عن سبب تسميتها باليمن، فهناك من يذهب إلى أن ذلك أنما كان نسبة إلى أول من قطنها من العرب، الذي قال له والده قحطان أنت أيمن ولدي، أو لأنها تقع على يمين الكعبة، بينما يتجه فريق ثالث إلى أن السبب أنما كان في طبيعة البلاد نفسها، فهي بلاد اليمن والخير والبركة، على أن رأيا رابعا يذهب إلى أنها سميت بذلك لتيمن العرب إليها، غير أن كل تلك الآراء لم تقل لنا شيئا عن الاسم الذي كان يطلق عليها قبل أن تسمى باليمن، وتشتهر بلاد اليمن بغنى محاصيلها وتنوعها، واعتدال مناخها، حتى أنها سميت باليمن الخضراء

2- **تهامة:** تمتد تهامة من البحر الأحمر فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر، وقد ورد اسم هامة في النصوص العربية الجنوبية "تهمت" (تهمتم) وقد حاول بعض الباحثين إيجاد علاقة بين هذه اللفظة وكلمة (Tiamtu) البابلية ومعناها البحر، وهناك من جعل "تهامة" من التهم وهو شدة الحر وركود الريح.

3- **الحجاز:** تمتد رقعة الحجاز من تخوم الشام عند العقبة إلى حدود أرض تهامة، وقد اعتبر بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز، ويقال للقسم الشمالي من الحجاز أرض مدين وجبل "إرم" وتتخلل الحجاز أودية عديدة، منها وادي إضم (ملتقى أودية بطحان، العقيق)الذي ورد ذكره في أشعار الجاهلية وفي أخبار سرايا الرسول، ووادي نخال ووادي القرى وهو وادي هام يقع بين العلا والمدينة، ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شريانا من شرايين الحركة التجارية في شبه الجزيرة.

4- **نجد:** هي في الكتب العربية اسم للأرض التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها العراق والشام، وحدها "ذات عرق" في الحجاز، تعرف بكونها قاحلة تماما.

5- **العروض:** تشمل اليمامة والبحرين وما اتصل بهما، وأغلب الأراضي فيه صحاري وسهول ساحلية ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر شرقا.

**ثانيا. دول، مدن وحواضر شبه الجزيرة العربية:** عرفت شبه الجزيرة العربية وجودا بشريا منذ آلاف السنين ومنذ عصور ما قبل التاريخ، حيث اعتبرت دائما موطنا مصدرا للهجرات البشرية التي عرفتها بلاد ما بين النهرين، وبلاد فنيقيا، قامت بها حضارات عرقية ودول كثيرة نبرز منها:

**1. دول الجنوب:** عرفت العربية السـعيدة قيام العديد من الحضـارات والدول منها حمير، سـبأ قتبان، حضرموت ....

**سبأ:** ذكرت دولة سبأ التي ظهرت في جنوب الجزيرة العربية في القرآن الكريم والتوراة من خلال قصة ملكة سبأ والنبي سليمان –عليه السلام_ ، وتشير الأدلة الأثرية التي كشف عنها في العراق والتي تعود إلى عهد سرجون الثاني (721– 705 ق.م) في ذكر الدول التي تؤدي إليه الجزية، ويتجه بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن هذا النص يشير إلى قيام السبئيين بدفع الجزية عن تجارتهم في شمال جزيرة العرب، حتى يسمح لهم بالمرور إلى شواطئ البحر المتوسط، وذلك نظرا لأن سرجون الثاني لم يصل بسيطرته إلى اليمن.

في حين يشير بعض العلماء إلى أن كلمة SA–Ba–A–A= Sabu الواردة في أحد النصوص السومرية التي عثر عليها في لجش (لاغاش) حوالي عام 2500 ق.م تعني سبأ، وإذا كان ذلك صحيحا، أصبحت هذه النصوص السومرية أقدم نصوص تاريخية تصل إلينا فيها ذكر لسبأ، لكن هذه النقيشة قد أثارت جدلا كبيرا بين العلماء، فاعتقد البعض ن السبئيين المذكورين في النصوص السومرية كانوا يقيمون في بادية شمال بلاد العرب ومنها انتقلوا إلى اليمن، واختلفت الآراء كذلك بشأن زمن هذا الانتقال فاتجه البعض إلى تحديده بالقرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأرجعه البعض إلى القرن الحادي عشر، بينما أرجعه فريق ثالث إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

**2– دول الشمال:** عرفت العربية الصحراوية في الشمال بدورها بروز عديد المدن والممالك والحواضر في صورة تدمر وملكتها زنوبيا، الغساسنة التي تبعت البيزنطيين والمناذرة الذين تبعوا حكم الأكاسرة.

**تدمر:** تقع على بعد 150 كلم إلى الشمال الشرقي من دمشق، تحتل موقعا هاما على الطريق التجاري بين العراق والشام، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق، وما يتصل بها من أسواق في إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، وبين تلك التي على البحر المتوسط، وبخاصة في الشام ومصر، فضلا عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية ما جعلها ملتقى جميع القوافل، فيما بين القرن الأول قبل الميلاد، وعام 273م.

وتعرف تدمر عند اليونانيين بـ(بالميرا Balmyra) وهو مشتق من لفظة Balma اللاتينية ومعناها (نخل)، ويرى بعض الباحثين أن الإسكندر الأكبر لما تغلب عليها أطلق عليها Balmyra أي مدينة النخل،

وذلك نظرا لحدائقها الغناء من غابات النخيل العظيمة، فعرفت عند اليونان واللاتين منذ ذلك الحين بهذا الاسم، بينم ذهب فريق آخر إلى أن Balmyra هي ترجمة لكلمة (تمار) (تامار) (تمر) Tamar العبرانية ومعناها (نخلة)، وهي في الأصل اسم موضع في الجنوب الشرقي من يهوذا ورد ذكره في (سفر حزقيال). ويرى علماء التوراة أنه الموضع الذي بناه سليمان والمذكور في (أخبار الأيام الأول) ويرى البعض أن الرأي السابق خاطئا، لأن اسم المدينة يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري "تجلات بلاسر" الأول (1116- 1090 ق. م) أي قبل مولد سليمان نفسه، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها، بأكثر من سبعة قرون، وربما تكون الشهرة التي اكتسبتها مدينة تدمر في أيام كتبة أسفار (أخبار الأيام) هي التي حملتهم على إضافتها إلى أعمال سليمان كدليل على شهرته ومدى بلوغ ملكه في أيامه.

وذهب المؤرخ اليهودي (يوسفوس فلافيوس) إلى أن النبي سليمان قد تسيد مدينة تدمر، ويعد المؤرخ (بلينوس) أول كاتب كلاسيكي تعرض لمدينة تدمر، فذكر أنها مدينة شهيرة ولها موقع ممتاز، وأرضها خصبة وبها ينابيع وعيون، وقد عزلتها الطبيعة عن العالم ببادية واسعة الأطراف.

أما سكانها فكانوا عربا (شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء- بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة في كتاباتهم. كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المناطق الخصبة في شرق الأردن، عقب انهيار الدولة البابلية الحديثة، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام 530 ق.م.

وكان أهلها خليطا من تجار ومزارعين، أما أطرافها فكانوا أعرابا ورعاة، وكان في تدمر جاليات يونانية ورومانية، أقامت فيها وفضلت السكنى بها، كما كانت هناك جاليات يهودية نزحت إليها ربما قبل سقوط القدس في أيدي الرومان، وقد عرفت المدينة عصرها الذهبي منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، وذلك بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين إمبراطوريتي الفرس والروم المتنافستين.

**3. دول الوسط:** بدوره شهد الإقليم الوسط بين اليمن والشام بروز عديد الدويلات والحواضر في صورة مملكة كندة التي خلد أمرؤ القيس آخر ملوكها في أشعاره، ومدينة يثرب، ومكة ...

**مكة:** ويتسم مناخها بقسوته، إذ تشرف عليها جبال جرداء، وليس بها ماء، غير ماء زمزم، لذلك لم تصلح أرض مكة لأن تكون أرضا ذات نخيل وزرع، ونتيجة لذلك فقد اعتمد سكانها على التعيش مما

يكسبونه من الحجاج، بالإضافة إلى العمل بالتجارة، وتتميز مكة بموقعها الجغرافي، إذ تتجمع بها القوافل التي ترد من العربية الجنوبية تريد بلاد الشام، أو القادمة من بلاد الشام تريد العربية الجنوبية، ثم ما لبث أهلها أن اقتبسوا من رجال القوافل السفر وفائدته، فعملوا بالتجارة، ثم احتكروا التجارة في العربية الغربية وسيطروا على حركة النقل في الطرق المهمة التي تربط اليمن ببلاد الشام والعراق وذلك في القرن 6م.

لم يرد اسم مكة في الكتابات الجاهلية، أما الموارد التاريخية المكتوبة باللغات الأعجمية، فقد جاء في كتاب (جغرافيا) لبطليموس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، اسم مدينة دعيت بـ (مكربة) (مكربا)، وقد ذهب الباحثون إلى أن المدينة المذكورة هي (مكة)، وإذا كان هذا الرأي صحيحا يكون (بطليموس) أول من أشار إليها من المؤلفين وأقدمهم. أما الإخباريون فإنهم لم يشيروا إلى هذا الاسم الذي ذكره (بطليموس)، ولا إلى اسم آخر قريب منه، وإنما أشاروا إلى اسم آخر هو (بكة)، وقد ذكر هذا الاسم في القرآن، قالوا أنه اسم مكة أبدلت فيه ميم باء، وقد اتجه بعض الإخباريين إلى القول أن المقصود بـ (بكة) بطن مكة، وذهب آخرون أن بكة موضع البيت هو مكة ما ولاه بكة، وذكرت في القرآن الكريم بـ (أم القرى).

أما عن تاريخ تعمير مكة فقد ذهب بعض الإخباريين إلى أن (العماليق) كانوا قد انتشروا في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز، وجاء اليهود فاستوطنوا الحجاز بعد العماليق ثم جاءت (جرهم) فنزلت على (قطورا) أسفل مكة– وكان عليها يومئذ (السميدع بن هوثر)، ثم لحق بجرهم من قومهم باليمن وعليهم (مضاض ابن عمر) فنزلوا بـ"قعيقعان" بأعلى مكة، ثم حدث تنافس بين الزعيمين فاقتتلا، فتغلب (المضاض) وغلب (السميدع)، وجرهم قوم من اليمن قحطانيون، جرهم هو ابن (يقطن بن عامر) وهم بنو عم (يعرب) وكانوا باليمن وتكلموا بالعربية ثم غادروها فجاؤوا مكة، ومن جرهم نزوح سيدنا (إسماعيل بن إبراهيم) وكانت هاجر قد جاءت به إلى مكة، فلما شب وكبر وتعلم لغة جرهم وتكلم بها، تزوج امرأة أولى قالوا أن اسمها (جرا) ثم طلقها وتزوج بإمرأة أخرى هي السيدة بنت (الحارث بن مضاض). وعاش نسله في جرهم، والأمر على البيت لجرهم إلى أن تغلبت عليهم (بنو حارثة بن ثعلبة) وهم خزاعة، فانتزعت منها الملك وزحزحنها، وجاء عمرو بن لحى (وهو منها– ملكا عليها، وظلت خزاعة صاحبة مكة، إلى أن كانت أيام عمرو بن الحارث وهو (أبو غبشان) فانتزع قصي منه الملك وأخذه من خزاعة لقريش، وكان (عمرو بن لحى) أول من نصب الأوثان وأدخل عبادة الأصنام إلى العرب، بعد أن كان إسماعيل بن النبي إبراهيم –عليه السلام– يدعوا الناس في مكة ومجاوراتها إلى عبادة الله.

ويعد (عمرو بن لحى) أول رجل يصل إلينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر في تكوين مكة وفي إنشاء معبدها وتوسيع عبادته بين القبائل المجاورة لها، حتى صار لهذه المدينة شأن عند القبائل المجاورة وذلك لإتيانه بأصنام نحتت نحتا جيدا بأيد فنية قديرة، وعلى رأسها الصنم (هبل)، وقد تمكنت قريش في نهاية القرن السادس وبفضل نشاطها التجاري أن تصبح من أهم المراكز المرموقة في العربية الغربية في التجارة، وفي إقراض المال للمحتاج إليه، كما تمكنت من تنظيم أمورها الداخلية ومن تحسين شؤون المدينة.

أما عن (قصي بن كلاب) فقد قام بعدة إصلاحات في مكة، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة، جعل لكل بطن حيا خاصا به على مقربة من الكعبة، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام، فيتعهدونه بالصيانة، ويدفعون عنه الخطر، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه (دار الندوة)، حيث كان يدار فيها تحت رئاسته كل أمر قريش وأما أعضاء دار الندوة، هذه فكانوا جميعا من ولد قصي، وبعضا من غيرهم، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره، أو كان من ذوي القدرات الخاصة. وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد.

**للإستزادة أنظر:**

**أولا. القرأن الكريم:** سورة النمل، سورة سبأ، سورة، سورة الأنبياء.

**ثانيا. المراجع:**


1- هنري س. عبودي: معجم الحضارات السامية، ط. 2، جرس-برس، طرابلس، لبنان، 1991.
2- أحمد أمين سليم: معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة كريدية اخوان، بيروت، لبنان، د. ت.
3- محمد عبد القادر بافقية وآخرون: مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للثقافة والتربية والفنون، إدارة الثقافة، تونس، 1985.
4- ياسين غضبان: مدينة يثرب قبل الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، دار البشير، عمان الأردن، 1993.
5- حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1997.